D:1De 5030

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-12468/fragment/page=00000002

DE 5020

Hommage de l'auteur

12.222/II.07

# LA MÉDITERRANÉE

## Centre de la Civilisation

dans le Passé et L'Avenir

par

A. - J. GEMAYEL

Rédacteur du Journal Al-Bachir

Professeur de Littérature à l'Université St Joseph

# البحر المتوسط والتمدن

خطاب

لانطون الجميّل

Prix franco 1,75

Chez l'auteur

Beyrouth (Syrie)

# البحر المتوسط محور التمدن

## في سالف الايام وفي مستقبل الزمان

ياكرام السادة

هي الدولة اليونانية في عهد عزها وشوكتها ترقت اعلى درجات التمدن والحضارة فبلغت شأوًا بعيدًا في عالم الادب والفنون واحرزت اكاليل السبق في ميدان التقدم والعمران حتى ادركت ذروة المجد الرفيع. فنظرت اذ ذاك الى ابنائها نظرة فخر واعجاب فدعتهم « متمدنين » والقت على من سواهم نظرة ازدراء واطلقت عليهم لفظة « بربري » او « وحشي » ... كذلك فعلت الرومان في عصرها الذهبي. اما في عصرنا فلم تعد الدول والشعوب ترضى فقط باحتكار التمدن لها ولابنائها بل انها تسعى في ان تنشره في انحاء الارض جمعاء. كالشمس لا تقتصر على ان تكون مضيئة منيرة بل انها تنير السيارات والاجرام حولها. فطمحت ابصار الافراد والممالك نحو التمدن وجعلته الشعوب غايتها القصوى ومبدأ اعمالها وحروبها وربما اتت باسمه بما هو بعيد عنه واقدمت في سبيله على ما هو بري. منه. تجيب من لامها على بذل الارواح والاموال في حروب وحشية « هو التمدن لاجله حاربنا وفي سبيله قاتلنا »

فكأني بالتمدن سبب يحلل المنكرات وغاية يسوغ في سبيلها انتهاك الحرمات فاصبح الباعث الاساسي لكل الحوادث

والاعمال

سلوا الفرنسيس عن سبب احتلالهم في المغرب او في الصين او في التنوكان ... يجيبون لبث روح التمدن . اطلبوا من الانكليز ما الداعي للحروب التي اثاروها في الهند وافريقيا ... الجواب هو ذاته : لاعلاء شأن التمدن . سلوا بقية الدول عن حروبها وغزواتها الجواب لا يزال نفسه : للتمدن لاجله قاتلنا وفي سبيله حاربنا . لتمدن هذه الشعوب ونخرجها من ظلام الهمجية الى نور الحضارة

اما وقد اصبح التمدن والمتمدنون في هذه الحالة فلنبحث عن ماهية التمدن وجوهره وعن الاماكن التي سطع فيها خصوصاً نوره فبلغ درجة تستحق الذكر فنقول :

١

ان التمدن قائم على تقدم الماديات والصناعيات والادبيات : تقدم مادي تقدم صناعي تقدم ادبي مجموع يتركب منه التمدن الحقيقي . فالتقدم المادي يدور على الغنى والثروة وامتداد السلطة والتقدم الصناعي يرجع الى نجاح الفلاحة والزراعة وتحسين الصنايع والفنون والتقدم الادبي يقوم بالمعارف والفنون ونشر المبادىء القويمة الصحيحة. ومهما توفرت هذه الشروط في بلاد كان التمدن فيها ارفع واكمل مما في سواها والعكس بالعكس ... ولسنا نريد بذلك عدم حصول التمدن في بعض البلاد فان التقدم الادبي

ممكن لا بل واجب في كل ارض فيها ذو عقل. لكن التقدمين المادي والصناعي هما متعذران في بعض الاصقاع ... اي فنون واي زراعة اي غنى واي صناعة يرجى من سكان اللابوني Laponie مثلاً او بعض قاطني القطب الشمالي وبلادهم تنفي عنهم كل تقدم: الثلج ارضهم ومأواهم والغيوم المتلبدة سماؤهم ... فان لجودة التربة وغنى الارض وصفاء الجوّ ونقاوة السماء عظيم تاثير في التقدمين الصناعي والمادي . فلنبحث اذاً سادتي عن اي بقعة من كرتنا الارضية تجمع اكثر مما سواها شروطاً من شأنها تقدم الصناعيات والماديات والادبيات اعني التمدن ... بعدل سعي التاريخ رسول الماضي وشاهد الحوادث ونور الحقيقة فعسى بنوره ان يتضح لنا كنه هذه المسالة التي نحن بصددها

هو التاريخ ينبئنا عن ذلك وكل حوادثه تجتمع وتشير لنا الى بقعة مختارة بقعة صغيرة بالنسبة الى كرتنا الارضية لكنها مع صغرها كروضة غناء تربها التقدم المادي وهواؤها وسماؤها التقدم الصناعي وانهارها التي تستقي منها التقدم الادبي فاصبح التمدن والحالة هذه ثمرتها اللذيذة اليانعة التي تتوق الشعوب الى اجتنائها الا وكلكم قد هتفتم مكررين صدى التاريخ « هو البحر المتوسط »

اجل سادتي انه على شواطي هذا البحر — وبلادنا منها — سطع نور التمدن وتجلى باكمل مظاهره . فالبحر هذا كان في غابر

الايام محور الحضارة وقاعدتها وسيكون كذلك في مستقبل الزمان فانه قد توفرت فيه كل شروط التمدن : التربة جيدة والسهول مخصبة والمعادن متوفرة والانهار عذبة تلك شروط تقدم الزراعة والفلاحة . السماء صافية زرقاء والشمس ساطعة منيرة والجو رائق والهواء خفيف والنسيم لطيف تلك شروط تقدم الشعر والفنون ومن تقدم الفلاحة والزراعة والعلوم والفنون يتولد النجاح المادي اعني الثروة وامتداد السلطة

٢

ان بحرنا هذا ليس الا بحيرة بالنسبة الى الاوقيانوس لكنه يظهر لنا في التاريخ كالبحر الاكبر : كان مهد الشعوب ومنبت الابطال . حدثت فيه الحوادث المشهورة وجرت على شواطئه المواقع المأثورة ففي ايام الحرب كان ساحة الهيجاء وفي ايام السلم كان مجتمع العلماء فمن يوم اكتشاف الفينيقيين فن الملاحة حتى اكتشاف كريستوف كولب العالم الجديد كم من شعوب كم من من دول كم من مدن كم من مآثر ... كلها حول هذا البحر

هم الفينيقيون اجدادنا ركبوا البحار واقتحموا الاخطار وحملوا تجارتهم الى مجاوريهم . رصدوا السماء ودرسوا نجوم القبة الزرقاء فاهتدوا في سيرهم على سير الكواكب . هم المصريون

احرزوا من التقدم نصيبًا وافرًا فقامت بناياتهم تشهد بتقدمهم على كر الدهور

هم اليونان نالوا ما نالوا . أكرم عندهم شأن العلم ورفع مقام الادب . اخذتهم رومة بالحسام واخذوها بالاقلام وما كاد الدهر يبيد هذه الشعوب حتى كانت ذهبت مستعمرة فينيقية واسست مدينة قرطجنة فبلغت هذه من الحضارة مقامًا رفيعاً وشأوًا بعيدًا ولكن « لكل شيء اذا ما تم نقصان ... » فما كادت تنكسر شوكة قرطجنة وتتلاشى سلطتها حتى رفرف النسر الروماني في الجوّ وكاد جناحاه يحجبان الشمس . صفق في الهواء وحلق في اعلى السماء وحدق ببصره في العظماء فانقض انقضاض الصواعق على كل مرتفع شاهق حتى ذلت لمخالبه سباع البر وحيتان البحر

وما كاد النسر الروماني يشيخ وتضعف اجنحته حتى زأر في الغاب النمر البربري وبرز شعب جديد طاهر رضخت لسطوته الامم

فاي عظمة واي سلطة تضاهي ما نالته هذه الشعوب التي كان البحر المتوسط مهد نشأتها وميدان مباراتها فاصبحت اسماء ابطالها ترادف الحزم والعزم والبطش كاسكندر المكيدوني وانيبال القرطجني والقيصر الروماني .. هذا في امتداد السلطة اما انتشار العلوم والاداب فلم يكن باقل نصيبًا في هذه الاصقاع . بينما كان السيف يذلل الرقاب كان العقل باكتشافاته يذلل الصعاب والقلم برقة كتاباته يسحر القلوب ويفتن الالباب

كاني بالشاعر اورفه ( Orphée ) ترقص الحجارة طرباً عند استماع شعره وطباع الكواسر تلين لرقة نظمه (١) وبذلك الاعمى المؤيد الذكر هوميروس من لقبوه بالالهي ( Le Divin ) لبلاغة قوله ينشد بشعره الفخيم حرب تروادة ... كاني بدمستين يحرض الشعب على فيليب وبسيسرون يهدد كاتلينا من اعلى المنابر وبالعالم ارخميد يسترق من الطبيعة اسرارها ونواميسها . كاني بالفيلسوف ديوجين وامامه اسكندر الكبير من اذعن لامره المغرب والمشرق يقول : لو لم اكن الاسكندر لوددت ان اكون ديوجين ... وكم وكم من الفلاسفة والشعراء والمؤلفين والخطباء : بريكلس وارسطو سقراط وآشين سوفوكل واوريبيد فرجيل وهوراس ... ذكرهم فقط يقتضي المقالات الضافية . كلهم اشتهروا في ميدان العلوم والاداب وانارو بشمس معارفهم شواطي البحر المتوسط وزينوا اقاليمه ومفاوزه بدرر اقوالهم وجواهر افكارهم وسحر اشعارهم وغريب اكتشافاتهم. دول وشعوب سلاطين وملوك علماء وحكماء تنقلوا من ناحية الى ناحية لكن دائماً حول هذا المحور اعني البحر المتوسط كأن في مياهه قوة جذابة تجلب التمدن وكاني بالتمدن قد طاب له هواء هذا البحر فضرب اطنابه على شواطئه منتقلاً من شرقيه الى غربيه ومن جنوبه الى شماله

(١) Horace: Ars Poetica : vers 391
Boileau :Art Poétique : chant IV. vers 143

امـا الان وقد مرّ على الخليقـة اربعون جيلًا فلندع مفاخر الشعوب ومآثر الرجال ولننتقل الى مغارة في سفح جبل . هو الليل لكن نجمًا ساطعًا يجلو لنا هذا المشهد . فيا لله ما اسماه : امرأة جامعة بين طهر العـذارى وحنو الامهات عيناها دامعتـان وثغرها باسم ازاءها رجل عظيم الهيبة والوقـار وبينهما طفل صغير باهر الجمال والكمال . منتهى العظمة في منتهى الذل . لاجله اتت ملوك الشرق سجدًا ولعظمته بوّقت الملائكة على جبـال صهيون « المجد لله في العلى » .. هو المسيح مصدر الحب والسلام هو النور ومن تبعه لا يمشي في الظلام مسح الارض بدمه ومات على الصليب حبًا بشريته . كان الصليب آلة الذل والعار فاصبح وقد طهره دم اله آلة الفخر والمجـد . انتصب على جبل الجلجلة فـاتحًا ذراعيه للبشرية فهبت تلاميذه تبشر بتعـاليمه فقامت قوات الارض واحتشدت جـنود الجحيم عليهم لكنهم باسم الله الحي مشوا دائمًا الى الامام حتى دكوا هياكل الاوثان وعلى اطلال الكابيتول فوق وكر النسر الروماني نصبوا علم قائدهم وقد مرّ عشرون جيلًا ولا يزال ذاك العلم يخفق بعز ونصر في سماء هذا البحر . فالسلام عليك يا صليب ربي السلام عليك ... !

وبعد المسيح لم تبطل حركة التمدن في شطوط البحر المتوسط فكأن روحًا جـديدًا انبثّ في الهيكـل الارضي فظهرت شعوب ورجال : الجرمانيون والفرنك كلوفيس وشرلمان . ولم يبلغوا اشدهم

حتى ظهرت الدولة العربية وقد اتصفت بالشجاعة والكرم والسخاء ولم يمضِ الا القليل حتى قام المغرب على قدم وساق ارسل نخبة شبانه وجند زهرة فرسانه فامتزج التمدن الشرقي والتمدن الغربي فكانت نتيجة ذلك رجالاً وابطالاً حوادث ومواقع على شطوط هذا البحر العظيم: غودفروا دي بوليون من ابى ان يضع على راسه تاج الملك الذهبي حيث توَّج الفادي بالشوك. ريكاردس ملك الانكليز من لقبوه بقلب الاسد. لويس ملك فرنسا المعروف بالقديس صلاح الدين الايوبي صاحب العزة والشان. قامت بعد ذلك اسبانيا ابرزت رجالاً وعلماء اكتشفوا لها اراضي واسعة وللانسانية عالماً جديداً وللمنكودي الحظ اوطاناً. فامتدت سلطتها وبعد عزها حتى ان الشمس لم تعد تغيب على ممالكها الشاسعة. وكان لظهور بني عثمان الفخام دور عظيم في الدنيا فامتدت سلطتهم من المشارق الى المغارب وها نحن نحيي مليكنا المفدّى ونحني رؤوسنا اجلالاً لعظمتك يا سيد الخافقين وسلطان البرين والبحرين..

اما النهضة العلمية والادبية فلم تكن باقل اهمية ورفعة. فكم من الاباء الشرقيين الذين اضاؤوا بنبراس علومهم الكنيسة والعالم غريغوريوس. يوحنا الدمشقي. باسيليوس. يوحنا الذهبي الفم.. الخ تلك هي سادتي باختصار مآثر البحر المتوسط في غابر الايام والمستقبل يهيء له مآثر جديدة تزيد على تاريخ مجده صفحات

٣

اجل ايها السادة ان الانسان ينظر الى ماضيه فيراه احسن مما كان والى حاضره فيراه اقبح مما هو والى مستقبله فيظنه اسعد مما سيكون . نعم بحق قال دانت الشاعر التلياني : لا حسرة للانسان في ايام تعاسته اعظم من ذكره مجده السالف» مبدأ راهن في كل فرد من الهيئة الاجتماعية لكنه فاسد اذا استعملناه للشعوب . فالشعوب تنتعش بذكر مجدها الغابر الذي تعده ارثاً ثميناً من اجدادها . ومن صفحات عزها الماضي تتخذ لها قوة توهلها للحياة والامل . ذكرنا اذاً ماضينا لننشط في حاضرنا و يزداد املنا في مستقبلنا نعم يقال : « ما اضيق العيش لولا فسحة الامل » لكن رجاءنا هذا ليس من مجرد الامل بل انه يتحقق بالنظر الى سير الحوادث فيصبح املاً وطيداً وان شاء الله يصبح ذاك الامل يقيناً ...

كلٌّ يعلم سادتي ما لبلاد الهند والشرق الاقصى من الاهمية وعظيم الشان وما لتجاره هذه الاقطار من الثروة والرواج . وكان في سالف الايام مصيرها ومنفذها الطبيعي مع القوافل والركبان الى هذا البحر فاكسبته فوق اهميته اهمية وزادته على تقدمه تقدماً ولكن لم تلبث الحوادث ان تغيرت والاحوال ان تبدلت . الا ونحن في اواخر الجيل الخامس عشر وقد اصبحت البحار ميدان السباق والمباراة اثر اكتشاف كريستوف كولب العالم الجديد . فانصرفت العقول واتجهت الافكار نحو اميركا ... ولكن لم تكن

Bibliothek der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft

الضربة القاضية على تجارة البحر المتوسط الا بعد سنين قلائل اعني في عام ١٤٩٨ في اثنائه جاز الجوالة البرتوغالي فاسكودي غاما (Vasco de Gama) راس الرجا الصالح مكتشفًا هكذا طريقًا جديدة الى الاقطار الهندية . وعلى اثره سارت بقية السفن فضعفت اهمية البحر المتوسط و بقي قرب ثلاثة اجيال وهو لم يمتزنا امتاز به ولم يشتهر بشيء يذكر بالنسبة الى ماضيه

ولكن اذا نزل النسر برهة الى الارض هل يمكننا ان نجزم ان اعالي الجو لم تعد مسكنه ومملكته . اذا مال الحديد عن المغناطيس لباعث ما هل نحكم ان المغناطيس فقد قوته الجذابة . اذا رجع الاسد الى الوراء امام فريسته هل نقول انه عري من بسالته . اذا همد البركان مدة هل نقطع بانطفاء ناره وحرارته ... لا لعمري فالنسر ينحدر الى الارض حتى يكتسب قوة جديدة يحلق بها في الهواء . والاسد يعود الى الوراء حتى تكون وثبته اقوى واشد . والبركان يهمد مدة حتى يدّخر نارًا وشرارًا يحرق الارض بلظاها . كذلك اذًا لا يمكننا ان نحكم قطعيًا ان هذا البحر لم يعد كالسابق مصدر التمدن والفلاح وحلبه الرجال والاعمال . والحوادث هي اجلى برهان واوضح حجة على قولنا . فانه ما كادت تبزغ في افق الزمان شمس الجيل التاسع عشر حتى بددت اشعتها الغيوم التي كانت تلبدت ساعة في جو البحر فعادت سماؤه الى صفائها وبهائها فمن حيث اتى الداء اتى الدواء : توقفت الحركة باكتشاف طريق

جديـدة للهند وعادت باكتشاف طريق اقرب واسلم اعني ترعة السويس

قام بهذا المشروع الخطير الافرنسي الشهير فرديناند دي ليسبس F. de Lesseps فكلل النجاح اعماله وانتصب تمثاله الكريم على شاطئ هذا البحر اعلانًا بفضله

هكذا عادت طريق الهند في البحر المتوسط اعني بقناة السويس فالبحر الاحمر فالاوقيانوس الهندي وهكذا عاد البحر المتوسط الى اهميته. ومجمل السياسة في عصرنا يبرهن عن زعمنا فمهما امتدت سلطة الدول في الخارج ومهما نفذت كلمتها لا يهدأ لها روع ولا يقر لها قرار الا متى نشرت لواءها في البحر المتوسط وعززت شأنها في سواحله وموانيه. فاصبح اذًا كالاول الغاية القصوى ومحط الامال ومحور الاعمال ... نرى الدول جندت الجنود العديدة ونظمت العساكر الجمة وكلٌّ منها مستعد على اخذ نصيبه برعيد المدافع و بريق البواتر. واذا نظرنا في قوات الشعوب نجد ان اكبر الاساطيل واقوى المدرعات تتبختر في مياه هذا البحر وعند ادنى باعث تفتح فاها فتقذف نارًا جهنمية وتنسف قنابل نارية فتدمر الثغور وتهدم الحصون والله ربنا اعلم بما سيكون

هذا مستقبل البحر المتوسط من الاهمية. اما التقدم المادي والصناعي فلا يكون باقل نصيبًا اذ ان السكك الحديدية التي بوشر بتخطيط بعضها تجمع شواطئه مع داخلية البلاد فيبلغ حينئذ الدرجة

العظمى من النجاح والفلاح كيف لا ويصبح والحالة هذه منفذ محصولات البلاد وصادرات الاقطار. ولا شك في ان بلادنا يكون لها القدح المعلى والنصيب الاوفر في هذا الطور الجديد الذي سيعيد او بالاحرى ابتدأ يعيد البحر هذا الى عظيم شانه الغابر

ولو لم نبحث الا عن المنافع الناجمة عن سكة الحجاز التي بوشر بها منذ مدة بايعاز ومساعدة جلالة متبوعنا الاعظم ايده الله لا كتفينا للاعراب عن هذا المستقبل الزاهر. وقد كتب واجاد حضرة الاب لامنس اليسوعي في مقالة ادرجها في مجلة «المشرق» الغراء تحت عنوان «سكة بغداد الحديدية» ضمنها بحثاً اقتصادياً جغرافياً نستخلص بعض ما قال: «لا يجهل ذوو الالمام بتاريخ الشرق ان الاقطار الاسيوية التي تملك عليها دولتنا العلية كانت في الاعصار السالفة الطريق اللاحبة التي تسير فيها القوافل فتجمع بين العالم المتمدن واصقاع الهند حتى اقاصي الشرق فكان موقع هذه الاقطار كوصلة بين دول عظمى .. فهل يمكن اعادة هذه الطريق التجارية او على الاقل صرف جانب منها عن طريقها الافريقية على راس الرجا الصالح (١) ... مسالة خطرت على بال الحضرة الشاهانية فرات ايدها الله ان في انجاز مثل هذا العمل جدوى عظيمة لكل رعاياها الراتعين في ظل الاريكة العثمانية

(١) راينا آنفاً ان نقض برزخ السويس وحفر الترعة الواصلة البحر المتوسط بالبحر الاحمر قد حولا قسماً وافراً من هذه التجارة

وفوائد هذه المواصلات جمة . منها تجارية زراعية ومنها حربية عسكريه ومنها ادبية علمية . كـذا نقول عن سائر المشروعات في جميع انحاء البلاد القائمة على شواطيء هذا البحر...

تلك هي سادتي سفرة سافرناهـا سوية على شواطىء هـذا البحر الجميل مقلبين تواريخ الامم والشعوب التي مرت عليه لا بل رافعين ايضاً احياناً الستار عما تخبئه له الايام فتحقق لدينـا انه كان في غابر الاعصر وسيكون في مستقبل الزمان محور التمدن والتقدم

هذا ما اردت ان ابينه لكم طـالبًا ان تكون هذه السفرة الطويلة قد روحت خاطركم واكسبتكم قوة ونشاطًا راجياً من حضراتكم العذر عن التقصير — او التطويل — في موضوع هكذا وسيع . وعلى كل فعلى الله الاتكال فهو مصدر التمدن والتقـدم والكمال ...

BIBLIOTHEK der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft.

De 5030

Deutsche
Morgenländische
Gesellschaft

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-12468/fragment/page=00000017

ULB Halle
001 070 38X
3/1
Nur für den Lesesaal

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-12468/fragment/page=00000019

Semayel

La Méditerranée

Centre de la civilisation

De 5030

Universitäts- und Landesbibliothek Sachsen-Anhalt
urn:nbn:de:gbv:3:5-12468/fragment/page=00000020